البصائر

قواعد النشر والتوثيق في المجلة

١ . أن لا يزيد حجم البحث عن (٢٥) صفحة (٧٥٠٠) سبعة آلاف وخمسمائة كلمة .
٢ . أن لا يكون سبق نشره ، أو أرسل إلى مجلة أخرى ، وأن يرفق الباحث إقراراً خطياً بذلك .
٣ . أن يُراعى في البحث ما يلي :
- الأخذ بالأصول العلمية إحاطةً ، واستقصاءً ، وخطوات بحث ، والحرص على التوثيق وحسن استخدام المصادر والمراجع .
- كتابة البحث بلغة سليمة ، والعناية بما يلحق به من خصوصيات الضبط ، أو الرسم ، أو الأشكال .
- يزوّد الباحث هيئة التحرير بثلاث نسخ من بحثه مكتوبة على الآلة الكاتبة .
- يرفق بالبحث ملخص في حدود (٢٠٠) كلمة باللغة التي كتب بها ، وآخر باللغة الثانية التي تُعنى بها المجلة .
- تدوين التعليقات والحواشي والمصادر والمراجع في آخر البحث .

٤ . تخضع البحوث للتحكيم من قبل أساتذة مختصين في الجامعات ومراكز البحوث .
٥ . يبلغ الباحث بنتيجة التحكيم خلال ثلاثة أشهر من تاريخ وصول البحث للمجلة ، وبموعد النشر إن أُجيز البحث من قبل المحكمين .
٦ . يزوّد الباحث بنسخة واحدة من العدد الذي نشر فيه بحثه ، وبعشرين فصلة (مستلة) من بحثه .
٧ . أن يلتزم الباحث بأصول التوثيق المعتمدة في المجلة على النحو التالي :
- تدوّن الإحالات المرجعية في نهاية البحث مسلسلة بأرقام تبدأ من الرقم (١) ، وتشمل عندما ترد أول مرة : إسم المؤلف كاملاً ، والمترجم أو المحقق إن وجدا ، وعنوان الكتاب أو البحث ، والطبعة ، ومكان النشر ، والناشر ، وسنة النشر ، والجزء أو المجلّد إن كان المرجع كتاباً ، وعدد المجلة وتاريخها إن كان المرجع مجلّة ، ورقم الصفحة .
- ترتّب المعلومات البيبلوغرافية إن كان المرجع كتاباً على النحو التالي : المؤلف بدءاً بالإسم الأول فالعائلة أو الشهرة ، ويليه فاصلة . إسم الكتاب بارزاً بالحرف الأسود متبوعاً بفاصلة . اسم المترجم أو المحقق إن وجدا . معلومات النشر ، محصورة بين قوسين ، على التوالي : مكان النشر متبوعاً بنقطتين ، الناشر متبوعاً بفاصلة ، سنة النشر ، ويلي القوس الأخير فاصلة يتبعها رقم الصفحة .
- ترتّب هذه المعلومات إن كان المرجع مجلة على النحو التالي : المؤلف متبوعا بفاصلة . عنوان البحث بين علامتي تنصيص متبوعاً بفاصلة . إسم المجلة بارزاً بالحرف الأسود . عدد المجلة متبوعاً بتاريخها بين قوسين ففاصلة فرقم الصفحة .
- إذا تكرّر ذكر المرجع في حاشيتين متتاليتين دون أن يكون بينهما فاصل ، توثّق الحاشية بذكر : المرجع نفسه (أو نفسه) بالحرف الأسود متبوعاً بفاصلة فرقم الصفحة . أما إذا كانت الصفحة نفسها من المصدر نفسه ، فيذكر الموقع نفسه بالحرف الأسود . وإذا تكرّر ذكر المرجع في غير حاشية وكان يفصل بين كل حاشية وأخرى مرجع آخر مختلف ، توثّق الحاشية بذكر اسم المؤلف متبوعاً بفاصلة ، فعبارة المرجع المذكور بالحرف الأسود ، ففاصلة ، فرقم الصفحة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة علمية محكّمة تصدر عن عمادة البحث العلمي بجامعة البنات الأردنية الأهلية

المجلد ٢ / العدد ١ ذو القعدة ١٤١٨هـ / آذار ١٩٩٨ م

رئيس التحرير

أ .د . فهمي جدعان

مساعدا التحرير

د . علي حجّاج

د . عصام سخنيني

هيئة التحرير

أ .د . علية عبد الهادي

أ .د . وديع العبد

د . فوزي العكش

د . فارس بدوي

د . فخري خضر

كل ما ورد في هذا العدد من مجلة « البصائر » يعبّر عن وجهات نظر الكتّاب أنفسهم ، ولا يعبّر بالضرورة عن وجهات نظر هيئة التحرير ، أو سياسة جامعة البنات الأردنية الأهلية

المراسلات باسم رئيس التحرير
مجلة البصائر
جامعة البنات الأردنية الأهلية
ص .ب (٩٦١٣٤٣)
عمّان (١١١٩٦) ـ الأردن

❖

الاشتراك السنوي في المجلة

١ . الأردن :
أ . للأفراد : (٥) خمسة دنانير أردنية
ب . للمؤسسات (١٠) عشرة دنانير أردنية
٢ . الخارج :
أ . للأفراد : (١٠) عشرة دولارات أميركية
ب . للمؤسسات (٢٠) عشرون دولاراً أميركياً

الطباعة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الإخراج الداخلي والإشراف الفني
®
التنضيد الضوئي
أزمنة للنشر والتوزيع / عمّان

ترتيب المواد يخضع لاعتبارات فنيّة ، ولا علاقة له بأيّ اعتبار آخر

البصائر

المحتوى

الاستجابة الموضوعية : قراءة في نقد محمد حسين هيكل وتأثير النقد الأوروبي فيه	أ . د . خليل الشيخ	٧
النقد العربي القديم مشكلة وحل : كتاب الأغاني نموذجاً	أ . د . وليد خالص	٣١
المعرّي وأزمة الشاعر المثقّف	د . عبدالفتاح نافع	٥٧
إشكاليات الثقافة والحضارة : مصادر وأبعاد الصراع القادم	د . سالم ساري	٨٣
نحو أساس فلسفي للتربية البيئية	أ . د . محمد الصباريني أحمد محمد السقاف	١١٩
ملامح تطورية في مناهج علوم العاشر في الأردن حسب تقدير الطلبة	د . ابراهيم رواشدة	١٤١

مراجعات

ابن زريق البغدادي بين الحقيقة والخيال	أ . د . هلال ناجي	١٧٧
كتاب (الدلائل) للحسن بن بهلول	أ . د . ابراهيم السامرائي	١٩٥

الاستجابة الموضوعية : قراءة في نقد محمد حسين هيكل وتأثير النقد الأوروبي فيه

د. خليل الشيخ
قسم اللغة العربية . جامعة اليرموك

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى قراءة محمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦) بوصفه ناقداً أدبياً. لهذا سعت لمعرفة المصادر النقدية التي شكّلت رؤيته ، وبخاصة منهج الناقد الفرنسي هيبوليت تين (١٨٢٨ - ١٨٩٣) وحاولت تبيان تأثير منهجه في نقد هيكل ، الذي تبنّى منهج النقد الموضوعي، القائم على تحييد العناصر الشخصية والذوقية أثناء تحليل العمل الأدبي ، وقد توقّفت الدراسة عند رؤية هيكل للأدب القومي ، وبيّنت الخيوط التي نسجت هذه النظرية ، وعلاقتها برؤيته النقدية التي تلتقي في جوانبها الكثير من المسائل التاريخية والفلسفية واللغوية . كما بيّنت الدراسة ما طرأ على فكر هيكل من تحوّلات ، ومدى تأثير ذلك في رؤيته النقدية .

The Objective Response : a Study in M. H. Haikal's Criticism and the Impact of the European Criticism on it .

Khalil Al . Shaikh
Yarmuk University

Abstract

This paper aims at studying M.H. Haikal (1888-1956) as a literary critic and tries to investigate the sources underlying his perspective, especially the method of the French critic Hippolyte Taine (1828 - 1893) and its impact on Haikal, who adopted the objective method, which lends to put aside every pesonal or emotional element while analyzing the literary work.

Moreover the study discusses Haikal´s perspective of national literature showing the main elements in this theory . The study also shows the turning points in Haikal´s thought and how they affected his critical perspective .

1

لقد قرئت أعمال الأديب والمفكر المصري محمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦) التي تتوزع على حقول معرفية عديدة ، من خلال رؤى نقدية متباينة[١] ، ولكنّ تباين هذه الرؤى لم يمنع الدارسين من الاتفاق على أنّ خطاب هيكل الفكري ، الذي يتجلّى في تلك الأعمال ، يتميّز بكونه خطاباً ظلّ يسعى للمصالحة بين الذات القومية المصرية / الإسلامية فيما بعد وبين الحضارة الغربية . لهذا ظلّ خطاب هيكل يتميّز بثبات في الإيقاع العام ، وبتغيّر في النغمات الفرعية . صحيح أنّ هيكل قد انتقل من رؤية ليبرالية ، تنطوي على مشروع تحديثي ، إلى رؤية يشكّل الإسلام أبرز تجلّياتها ، غير أنّ هذا الانتقال يوضّح أنّ هيكل غيّر الإطار العام ، ولكنّه لم يغيّر أدواته المنهجية ، أو هو على الأدّق أعاد توجيه تلك الأدوات ، لتعمل في حقل معرفي آخر ، وليتولّد عنها كشوفات مختلفة .

غير أن الحديث عن إشكاليّة هيكل - الناقد التي بدأت تتجلّى بعد عودته من فرنسا عام ١٩١٢ ، على نحو يوازي تجلياته في عالم الإبداع الروائي ، يبدو أكثر صعوبة . لأن رؤية هيكل النقدية مبثوثة في أعماله كلّها ، ولأنّ نقد هيكل ينبغي أنْ يُحلّل تحليلاً سياقياً من جهة ، وتاريخياً من جهة أخرى ، لتتبيّن الخيوط المعرفية والجمالية التي صاغت نسيج ذلك النقد سواء أكانت غربيّة أم محليّة .

بدأ محمد حسين هيكل نشاطه النقدي بعد عودته من فرنسا عام ١٩١٢ بمناقشة كتابين يؤرخان للأدب العربي هما :

تاريخ آداب العرب : لمصطفى صادق الرافعي[٢] . **وتاريخ آداب اللغة العربية** : لجورجي زيدان[٣] . والكتابان - رغم ما بينهما من تفاوت في الرؤية والمنهج - ثمرة الإعلان الصادر عن الجامعة المصرية عام ١٩٠٩ ، الذي دعت فيه إلى التأليف في « أدبيات اللغة العربية » ، ضمن مسابقة أعلنت عن شروطها[٤] .

كانت المقالة الأولى عن كتاب الرافعي ، وقد بدا فيها هيكل رافضاً رؤية الرافعي ، ومنهجه لأسباب عديدة ، كضعف الروح النقدية ، وزخرفة الأسلوب ، وحسّه العروبي ليخلص إلى أن كتاب الرافعي لا يتّفق مع روح العصر ، وطبيعة البيئة المصرية فالرافعي « ينتزع نفسه من الوسط الذي يعيش فيه ، وينتحل في أسلوبه وخيالاته وأفكاره صوراً ليست له ولا لقومه »[٥] . وهو «يجاهد لينسلخ عن طبيعة مصر ، ليبقى بذلك عربياً فصيحاً » . أما حديثه عن كتاب زيدان ، فقد بدا فيه هيكل ، رغم مآخذه على الكتاب ، مُعجباً بجهود صاحبه لذا وصف الكتاب بأنه « كتابُ مؤرّخ درس التاريخ وعرف ما هو »[٦] .

وبصرف النظر عن الأبعاد الشخصية التي يمكن أن ينطوي عليها نقد هيكل ، نظراً لموقف الرافعي من الجامعة المصرية ، ورئيسها أحمد لطفي السيد ، فقد وجد هيكل - الذي ينتمي إلى الجامعة فكراً ومنهجية - في كتاب الرافعي حالة نموذجية لإبراز الأبعاد التي ينطوي عليها مشروعه ، الذي كان النقد الأدبي أحد تجلياته ولإيضاح الضعف في المشروع النقيض الذي يمثّله الرافعي ، وهي حالة ستتكرّر في النقد الأدبي الحديث في مصر ، وبخاصة في كتابات العقاد وطه حسين وسيّد قطب التي ستتخذ من كتابات الرافعي وسيلةً لإبراز مشروعاتها النقدية والفكرية [٧] .

إنّ انشغال هيكل ـ القادم للتو من باريس - بهذين الكتابين يؤشّر على ما في ذهنه من مشروعات لعلّ من أبرزها كتابة تاريخ مصر ، ليجد مؤرخيْن لا يبرزان شخصية مصر ولا يشيران إلى دورها . من هنا كان اعتراضه شديداً على نزعة الرافعي العروبية ورؤية زيدان - وهو الآخر من المهاجرين الشوام - لأن هيكل كان يتغيّا بلورة معالم الشخصية المصرية الجديدة التي ينبغي أن تستمد ملامحها من التاريخ المصري ، وتفكيرها من الحضارة الغربية .

لقد تشكّل هيكل قبل ذهابه إلى فرنسا [٨] في رحاب معطيات فكرية واجتماعية قادته إلى تبنّي رؤية أحمد لطفي السيد الذي أخذت أفكاره منذ تأسيس الجريدة عام ١٩٠٧ تجتذب العديد من الأدباء والنقّاد في مصر .

ترجم لطفي السيد بعض كتب أرسطو مثل : **الأخلاق** (١٩٢٤) ، **الكون والفساد** (١٩٣٢) ، **الطبيعة** (١٩٣٥) ، **والسياسة** (١٩٤٧) وبدأ بالترجمة لاعتقاده أنها هي الأساس الذي ستقوم عليه النهضة المصرية المعاصرة ، واختار أرسطو لأن فلسفته ، في رأيه ، تشكّل مفتاح التفكير العصري الذي أخرج المذاهب الحديثة . وقد كانت آراؤه الفلسفية والاجتماعية تستمد خطوطها من فلسفة أرسطو ، وآراء التنويريين الفرنسيين ، والليبراليين الانجليز ، وتسعى لبناء مجتمع مصري حديث على أسس ديمقراطية وليبرالية وعلمانية [٩] .

وفي تلك المناخات تبلورت الدعوات إلى ضرورة اللحاق بالحضارة الأوروبية ، وتصاعد الحديث حول « القومية المصرية » وبدأ المفهوم الليبرالي أو « مذهب الحريّين » كما كان يسميه لطفي السيد بالانتشار ، وتنامت الدعوة إلى تحليل قضايا المعرفة والمجتمع من خلال نظرة عقلية ، ترتكز على الفلسفة الوضعية .

وبطبيعة الحال فإن دراسة هيكل في فرنسا قد أسهمت في بلورة تلك الأفكار . مثلما شكّلت نقطة تحوّل في تكوينه العام . فمن جهة أسهمت أطروحته عن « دَيْن مصر العام » [١٠] La dette publique egyptenne في ربطه بتاريخ مصر المعاصر ، وما ينطوي عليه هذا التاريخ من

خفايا ومشكلات ، ومن جهة أخرى أسهمت في تعزيز إيمانه بالحضارة الأوروبية وضرورتها في تقدّم مصر ونهضتها . كما عبّر عن ذلك في مقدمة **ثورة الأدب** (١٩٣٣) :

« عاد الشبان الذين أتموا دراساتهم في أوروبا قبيل الحرب أو خلالها أو في أعقابها ممتلئة صدورهم إعجاباً بالأدب الكبير الذي قرأوا والذي شهدوا على المسرح ، موجهة عقولهم توجيهاً جديداً على الطرائق العلمية الحديثة » (١١) .

1.2

أمّا **زينب** : **مناظر وأخلاق ريفية** فكانت بداية هيكل في عالم الإبداع الروائي وقد نشرها هيكل عام ١٩١٤ باسم مستعار : « مصري فلاح » ولم ينشرها بإسمه الصريح إلا عام ١٩٢٩م .

وإذا كان الدراسون قد وقفوا عند زينب (١٢) . وبيّنوا ما تنطوي عليه من رؤى وأبعاد ، فإن قراءة **زينب** في ضوء تكوين صاحبها آنذاك ، يؤكد أنها تمثّل الوجه الأدبي لمشروعه أو الوجه الشعبي له .

ولعله لم يكن غريباً أن تكون ولادة «زينب» مقترنة بعمل هيكل في أطروحته ذات الطابع الاقتصادي - السياسي . لأنّ « زينب » تعكس في خضم الانشغال بالاطروحة الوجه الوجداني لهيكل الباحث الذي سعى في أطروحته لتبيان معاناة مصر من « أنانية الاستعمار » ومن « فوضى الإدارة » (١٣) .

لهذا كان من الطبيعي أن تنطوي **زينب** على الكثير من الأفكار والآراء النقدية والاجتماعية التي سيقوم هيكل بإعادة بلورتها ، كآراء روسو (١٤) في العودة إلى الطبيعة والتربية الفطرية ، التي ترى أنّ القلب أو العاطفة هي مجموعة غرائز طبيعية إذا اهتدى المرء بها بلغ الصواب ، وكما يقول حامد :

« أنا مسوق بفطرتي للحب من أجل أن أُسعد نفسي (. . .) ولأن أخلّد النوع بما أتركه من الخَلَفْ كما أن الطبيعة تعمل جهدها لتجعلني أقع على من تستطيع باجتماعها بي أن تكون معي أُمَّ أحسن أولاد تقدم للجمعية » (١٥) وليس من قبيل الاستطراد أن يقال إن **هكذا خُلِقَتْ** (١٦) التي نشرها هيكل عام ١٩٥٥ تشكّل الوجه الآخر لزينب أو الوجه المقابل ، إذا نظرنا إليها من زاوية العلاقة بين العمل الروائي وتكوين صاحبه الفكري ، وما يطرأ على هذا التكوين من تحوّلات .

فبطلة هذه الرواية تعيش حياة مملوءة بالمغامرة والتقلّبات الفكرية وتتمنى أن تموت في المدينة المنوّرة ، رافضة لماضيها ، باحثة عن الغفران وحسن الختام . وهذا التحول يشاكل من الناحية الفكرية ما طرأ على تكوين هيكل الفكري وبخاصة بعد توجّهه للكتابة في ميدان الإسلاميات التي

تناولت حياة الرسول ، عليه السلام ، منذ كتابه **حياة محمد** ١٩٣٥ وحياة كبار الصحابة كَ **الصديق أبو بكر** ١٩٤٢ و **الفاروق عمر** ١٩٤٤ - ١٩٤٥ .

صحيح أننا نعثر في **هكذا خلقت** على آراء لقاسم أمين ، وهيبوليت تين ، مثلما سنجد فيها رجع صدى لآراء هيكل حول الحتمية ، وطبيعة علاقة الفرد بالمجتمع [١٧] ، غير أنّ ذلك كلّه سيُعاد توظيفه لصالح التحولات التي تعيشها بطلة الرواية ولتسويغها بعد ذلك .

2

إن تحديد طبيعة رؤية هيكل النقدية يقتضي التوقّف عند الدراسة المطولة التي نشرها منجمّة في مجلّة **المقتطف** من كانون الأول ١٩١٧ حتى حزيران من العام نفسه تحت عنوان : « القدرية والجبرية أو الاختيار والاضطرار » [١٨] ولم يُعد هيكل نشرها في كتبه اللاحقة ، رغم أنها تشكل المرجعية الفكرية التي ظلّ هيكل يمتح منها ، وإن كان ابنه المحامي أحمد هيكل قد جمعها في كتاب سماه **الإيمان والمعرفة والفلسفة** .

يبدأ هيكل دراسته موضحاً أنّه سيقف عند مسألة شغلتْ العقل الإنساني منذ القدم ، مؤكداً أنه سيدرسها من منظور فلسفي ، بعيداً عن الرؤية الدينية ويعلن هيكل أنّه منحاز إلى الموقف الفلسفي الذي ينفي القدرة على الاختيار لأنّ الاختيار « معدوم من الوجود جملة ، وإنما تصرّفنا قوانين مرتّبة نعرفها ، وصُدف واتفاقات ربما كانت تسير على قوانين لا نعرفها » [١٩] .

بعد ذلك يُعدّد هيكل العوامل التي تؤثر في الإرادة الإنسانية وتتحكم بها وهذه العوامل هي : الوسط الزماني والمكاني ، والوراثة والعادة والصدفة . ليبدو الفرد جزءاً من حركة المجتمع الجبرية هي الأخرى التي ليس فيها للاختيار مكان . ويتّضح ذلك في تعريفه للعامل الأول ومبالغته في إظهار سطوته ، وهو عامل سيظل هيكل يعود له في تحليلاته ، فيقول :

« فهذا الوسط الذي تكوّن على مدى الأجيال المتعاقبة من تفاعل ملايين الإرادات الإنسانية مع عوامل الطبيعة الأخرى له في إرادة كلّ منا أعظم تأثير ، فإنّ منها تتكون الأفعال الاجتماعية والأنظمة السياسية والقوانين الإجبارية والاعتبارات الأخلاقية . وهذه كلّها وما سواها من الأفعال الاجتماعية تشترك في صفة مميزة هي إكراهها كل فرد في اتباعها وجعلها تكيّف إرادته على النحو الذي تقتضيه » [٢٠] .

لهذا كان من الطبيعي أن ينظر هيكل إلى حركة « التطور » في المجتمع في ضوء فلسفة أوجست كونت الوضعية (١٧٩٨ - ١٨٥٧) ومراحلها الثلاث ويحدّد أنّ هذا التطور محكوم «بالضرورة الاجتماعية » . وقد رسم هيكل ملامح هذا التطور ، كما فعل كونت ، من خلال

رصد الظواهر وقوانينها على اعتبار أن البحث في جوهر الظاهرة يوقع الدارس في شرك الميتافيزيقا فقال :

« لهذا كان الناس أكثر إيماناً بما وراء الطبيعة وبالقوى المصرّفة للكون ، وفي حركات الرعد والبرق وفي الصواعق وفي غير ذلك مما يؤثر في حياة الاجتماع بالخير والشر . فلما بدت تباشير العلم وابتدأوا يوقنون أن الصواعق والمطر والخسوف والكسوف كلها ظواهر تسير على قوانين ونواميس معينة . قلّ إيمانهم الأول بما وراء الطبيعة وأصبحوا يحسون بأنّ الصلات التي كانت تربطهم بتلك القوى تتلاشى شيئاً فشيئاً حتى جاء مذهب الوضعيين les Positivistes في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وأساسه درس السنن والقوانين التي تحكم الطبيعة ، وتصرّف حياة الاجتماع من غير تعرّض بخير أو شر أو احترام أو تحقير للقوى الأصلية التي يقول بعضهم بوجودها . في حين ينكرها آخرون إنكاراً تاماً » [٢١] . ليخلص هيكل في ختام الدراسة إلى القول بأنّ « الوسط الاجتماعي هو العنصر الأقوى والمكوّن لفكرة المسؤولية في النفس الإنسانية » ولعلّ حرص هيكل على إيضاح تلك المرجعية الفلسفية يتضّح في ترجمته لمقدمة كتاب ليفي بريل **فلسفة أوجست كونت** فكانت تلك الترجمة تعميقاً لتلك الأفكار التي طرحها هيكل منذ وقت مبكر [٢٢] .

أما المقالة الثانية التي تشكّل مرجعية مهمّة على الصعيد النقدي وتؤكد وحدة القاعدة الفلسفية التي يصدر عنها هيكل فهي مقالته عن **هبوليت أدولف تين** [٢٣] التي كتبها بمناسة مرور مائة عام على ميلاده (١٨٢٨ - ١٨٩٣) ولما كان من اللافت للنظر أن تجيء المقالة متأخرة نسبياً (١٩٢٨) ، فقد أوضح هيكل بين ثناياها أنّ علاقته بأعمال تين قديمة : « فلقد قرأت كتبه في النقد والتاريخ منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة ، وتركتْ في نفسي من الأثر مالم تتركه كتب اناتل فرانس ومالم تتركه كتب أستاذ النقد الكبير سنت بيف نفسه » [٢٤] .

إنّ هذا يعني أن هيكل بدأ بقراءة تين عام ١٩١٦ ، أي بعد عامين من كتابة طه حسين لأطروحته **ذكرى أبي العلاء** [٢٥] التي اتكأ فيها على منهج تين في دراسته للمعرّي ، وإن كانت مصادر طه حسين النقدية في مرحلة التكوين تعتمد في فهمها لآراء تين على الكتابات النقدية العربية وبخاصة كتاب قسطاكي الحمصي **منهل الورّاد في علم الانتقاد** الذي صدر في القاهرة عام ١٩٠٧م ، إضافة إلى محاضرات أساتذته من المستشرقين في الجامعة .

وبصرف النظر عن مدى دقة ما يذكره هيكل ، فإنّ من الضروري أن يشار إلى أن مقالته تجيء بعد سبع سنوات من تعريف أحمد ضيف بالنقد الفرنسي وبـ « مذهب تين في النقد » [٢٦] في كتابه : **مقدمة لدراسة بلاغة العرب** الذي نشر عام ١٩٢١ وإن كان الفرق بينهما في الموقف تجاه

تين واسعاً . ففي حين ينحاز هيكل لمذهب تين ويتبناه :

« لكنّي ما أزال أشعر حتى اليوم حين أعرض لقراءة كتاب وحين أفكر في نقده ، ولو لنفسي ومن غير أي فكرة في الكتابة عنه ، على الطريقة التي أحبتها نفسي منذ قراءة كتب تين»[٢٧] . نرى بالمقابل أنّ أحمد ضيف يتحفظ على ما تمتاز به آراء تين من إطلاقية تمثّلت في «تسرّب المبادئ العلمية إلى الأدب والبلاغة » [٢٨] مثلما يعترض على رؤية تين ورينان فيما يخص تأثير الأعراق في الأدب ، ويكاد يتّهم رينان باللاساميّة [٢٩] .

وإذا كان هيكل لا يشير إلى دراسة أحمد ضيف ، فإنّه سيحتفي عام ١٩٢١ بكتاب طه حسين **صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان** الصادر سنة ١٩٢٠ . وسيثني على منهج طه حسين في أطروحتيه : **ذكرى أبي العلاء** و **فلسفة ابن خلدون الاجتماعية** لأنّ الأطروحتين تتمثلان منهج تين . يقول هيكل :

« ليس بنا حاجة للكلام عن الدكتور طه ولا لبيان طريقته في التأليف فقد عرف القرّاء رسالته في **ذكرى أبي العلاء** ، ومسلكه في تحليل نفسية الشاعر وردّه مختلف أرائه وأفكاره وأساليبه إلى الوسط الزماني والوسط المكاني الذي عاش فيه وهذه هي الطريقة التي اتّبعها في رسالته عن ابن خلدون التي قدّمها لجامعة باريس لجواز دكتوراه الأدب » [٣٠] . ثم يعقب هيكل بعد ذلك مبيّناً تبينه الكامل لهذا المنهج فيقول :

« وهي الطريقة العلمية التي تبعث للنفس صورة صحيحة من شخص الشاعر أو الكاتب أو الفيلسوف الذي يراد تحليله ، ذلك بأنّ الفرد لا وجود له بذاته ، وإنما وجوده بالوسط الذي يعيش فيه ، ومعرفة البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية والحالة التاريخية وما كان على أثر ذلك من عقائد وعوائد وأفكار وعواطف واتجاهات ذلك كلّه وحده هو الذي يسمح لنا بفهم أي كاتب أو شاعر أو فيلسوف ، وأيّ رجل آخر له صلة بالمجموع » [٣١] .

من الطبيعي إذن أن يصدر هيكل في مقالته **هيبوليت أدولف تين** عن إعجاب بشخصيته يتمثل في إيمان هيكل المطلق برؤية تين النقدية وبمنهجه :

« وعندي أنّ مذهبه في النقد أقرب إلى الدقة من كل مذهب سواه ، فهو أشدّ المذاهب إمعاناً في الموضوعية . فهو إذا عرض لكتاب أو لمؤلف لم يعرض له من جهة تقديره الشخصي للكتاب أو لصاحبه ، ولكن بعد تحليل كلّ ما أحاط بالمؤلف ومؤلفه من ظروف وبعد مقارنة هذا المؤلف بكل ما يستطيع مقارنته به ممّن عاصره ورمى إلى مثل غرضه » [٣٢] .

وقد تجلّى تبنّي هيكل لمذهب تين النقدي في مقالته عن قاسم أمين التي كتبها عام ١٩١٦م ، أي في العام الذي كان فاتحة ارتباط بين هيكل وتين ، وهي مقالة تعكس رغبة هيكل في تحويل

لحظات تين (العرْق ، العصر ، البيئة) من أبعادها النظرية إلى تجلياتها التطبيقية .

بدأ هيكلَ بمقدمة نظرية قصيرة بيّن فيها أن شخصية الكاتب تخضع للوسط الذي يعيش فيه . ولهذا فإنّ دراستها توجب « تعرّف الوسط الذي عاش فيه (الكاتب) والحالة النفسية الخاصة به (. . .) فإذا تمّ ذلك تفسّر الفيلسوف أو الكاتب أو الشاعر إلى حدّ كبير » (٣٣) .

واضح أنّ حديث هيكل عن الوسط Le milieue يتميّز إضافة إلى نبرته الوثوقية بخصيصته الآلية التي تلغي شخصية الناقد والمبدع وتجعلهما أسيرين لمجموعة من الحتميات ، تفضي إلى إلغاء الوجود المستقل للفن . فقد درس هيكل البيئات التي عاش فيها قاسم أمين وهي « الوسط الطبيعي » و « الوسط الاجتماعي » و « الوسط الفرنسي » ورأى أنّ دراسة تلك البيئات كفيلة بتفسير دوافع قاسم أمين ، وطبيعة تجليات تلك الدوافع . لأنّ الوسط الطبيعي « ذو أثر كبير في الناس الذي يعيشون فيه ، وبالأخص فيما يتعلق بخلقهم ، و« الوسط الاجتماعي » هو صاحب الأثر الأكبر في تشكيل أفكارهم » (٣٤) .

وكرّر هيكل الرؤية نفسها في حديثه عن شوقي ، فذكر الأوساط التي عاش فيها شوقي في مصر وفي فرنسا ، وتأثير تلك الأوساط في شعره ، ولكنه خلص إلى نتيجتين متباينتين فيما يتعلق بتأثير تلك البيئات في نتاج الشاعر وشخصيته . فإذا كان تأثيرات البيئات المتنوعة قد خلق لوناً من التنوع في نتاج قاسم أمين ، لا يصل حدّ التناقض ، فقد كان تأثير تلك البيئات في نتاج أحمد شوقي مختلفاً ، يتمثّل فيما سماه هيكل بالازدواج النفسي (٣٥) في شخصية شوقي وفي رؤيته الشعرية .

وإذا كان هيكل قد وضّح الأبعاد الفلسفية التي يصدر عنها في مقالة **المقتطف** فإن معالم رؤيته النقدية تتبلور في مقالة نشرها عام ١٩٢٥ وسماها **خواطر في النقد** (٣٦) .

يقسّم هيكل النقد الأدبي في مقالته تلك إلى قسمين : ذاتي وموضوعي ، ويوازن بينهما ويعلن انحيازه للنقد الموضوعي . يعرّف هيكل النقد الذاتي بأنه : « النقد الذي يصدر فيه صاحبه عن تقديره الخاص وحسّه بالجمال ، فيجعله مقياساً لكل ما يعرض له من ثمرات الفن » (٣٧) . أما النقد الموضوعي فهو في رأي هيكل النقد : « الذي يقصد إلى استعراض الأثر الفني من الوجهة التي أرادها الفنان في اختيار غايته والوسائل التي سلكها لبلوغ هذه الغاية » (٣٨) .

وإذا كان تين يرى أنّ الناقد مثل عالم النبات الذي يدرس شجرة البرتقال أو شجرة الصنوبر بالاهتمام نفسه (٣٩) ، فإن هيكل يذهب إلى القول غير مرّة في ثنايا تلك المقالة إلى أن « الناقد قاض » . وهذا التحوير الواعي مردّه ، كما يصرّح هيكل إلى الفرق الكبير بين فرنسا ومصر ، غير أنّ هذا التحوير الذي يتأثر بدراسات هيكل القانونية ، ينطوي على عدة أمور تخصّ رؤية هيكل

للناقد ووظيفته . فمهمة الناقد عند هيكل تقييمية وإن احتوت على شيء من التفسير ، لهذا يتجرأ هيكل ويعطي للناقد بعداً ذاتياً يخالف رأي تين « ومهما يتقيد القاضي بالوقائع والأدلة التي أمامه فإنّ لنوع تعليمه ولإدراكه وحسّه أثراً مباشراً في تقدير قيم هذه الوقائع والأدلة » (٤٠) . صحيح أنّ على القاضي ، كما يرى هيكل ، أن يقاوم تأثيرات الذاتية ما أمكن ، ولكنّ عليه ، أو على الناقد الموضوعي الذي يشبه القاضي ، أن يكون قاضياً سمحاً يسعى لكي « يحيط عند النقد بالظروف الفنّية وغير الفنية التي أحاطت بالفنان » (٤١) .

3

من الجلي أنّ اهتمام هيكل الناقد كان ينصّب بالدرجة الأولى على المبدع ، فالنقد في تصوره فعالية فكرية تهدف إلى تحليل الظروف الموضوعية التي شكلت الأديب وبلورت معالم رؤيته وطبيعة شخصيته . من هنا كان نقد هيكل منصباً على المبدعين ، يحاول تفسير مذاهبهم وتعليل توجهاتهم . وكان غياب النص أو الإبداع في هذا النقد غير لافت للنظر لأن الرؤية النقدية التي يصدر هيكل عنها لا تهتم بالإبداع إلاّ بقدر ما ينسجم مع الأسس الفلسفية لهيكل الناقد . وهذه الأسس قادته إلى ما يعرف بالنظرية الموضوعية (٤٢) Impersonal Theory التي تركز على ضرورة تفسير الإبداع بوصفه ثمرة من ثمرات التفاعل بين معطيات محددة . أما النقد الذاتي الذي يتأثر بالآراء الشخصية ومواطن الضعف في النفس الإنسانية فهو في نظر هيكل ليس نقداً وإنه أقرب إلى فن القصص . أما وظيفة النقد الموضوعي عند هيكل فهي « أن يسيغ كل ثقافة لذاتها وأن يردها إلى اصولها وأن يبين ما في هذه الآثار الفنية لكل مثقف من أوجه الجمال والقبح والحسن والسوء بالقياس إلى الثقافة التي صدر عنها » (٤٣) وهي وظيفة تلتقي مع النقاد الموضوعيين الذي يسعون لتبيان دور العصر بما ينطوي عليه من تيارات فكرية وأدبية في خلق المبدع ، ولإيضاح طبيعة عمل الناقد وتفسير الأعمال الأدبية والحكم عليها .

ولكن مذهب تين النقدي لم يكتف ببلورة أسس النقد النظرية عند هيكل بل قاده إلى مرحلة نقدية أخرى ، وهي حديثه عن الأدب القومي ، الذي يشكل بلورة لتلك الرؤى ومحاولة لوضعها في إطار الإبداع .

وضح هيكل في مقالة له بعنوان **الأدب القومي** (٤٤) نشرها عام ١٩٢٥ أنّ الأدب القومي عنده هو الأدب الذي يمثّل عصراً خاصاً « وبيئة خاصة » مضيفاً إلى ذلك « نفس الكاتب وما تفيض به من تفكير وإلهام » موضحاً بأن نفوس المبدعين هي « النفوس القوية التي تمثل عصراً خاصاً وبيئة خاصة والتي تخلّد آثارها » (٤٥) وهي « التي يصدر عنها الأدب القومي » ، وإذا كان

هذا يشير إلى أن هيكل بدأ يعطي لشخصية الأديب وتكوينه النفسي بعض القيمة ، فإن ذلك يتم على نحو لا يجعل هيكل يخرج من أسر الرؤية الموضوعية ، ولكن البعد الأكثر وضوحاً في رؤية هيكل للأدب القومي يتمثل في حالة التلازم بين شخصية الأديب والبعد الحضاري الذي يصدر عنه . فوجود الأدب القومي مشروط بوجود حضارة معيّنة وغيابه كما هو الحال في الأدب العربي كما يرى هيكل ، يعود إلى افتقار « الأمم التي تتكلم العربية » [٤٦] إلى مظهر حضاري مشترك .

لقد كانت ثورة ١٩١٩ في مصر نقطة تحول في رؤية هيكل ، وفي رؤية العديد من الأدباء والنقاد في مصر تجاه « الأدب القومي » . فقد بدأ النقاد والدارسون ، بصرف النظر عن خلفياتهم الفكرية ، بالتنظير لهذا الأدب ، ومحاولة بلورته على الصعيد الموضوعي والجمالي ، وهو مصطلح يعني « الأدب المصري » وتأخذ كلمة القومية دلالة وطنية تختلف عن دلالاتها في المرحلة الناصرية على سبيل المثال .

ولعل من المصادفات الغريبة أن يصدر في القاهرة في كانون الثاني من عام ١٩٢١ كتابان يختلفان في المنهج ، ولكنهما يتفقان في الدعوة إلى قيام أدب قومي ، أي أدب مصري صميم . وهذان الكتابان هما : **الديوان** لعباس محمود العقاد وابراهيم المازني **ومقدمة لدراسة بلاغة العرب** لأحمد ضيف .

فقد وصف العقاد والمازني مذهبهما بأنه « مذهب إنساني ، مصري ، عربي . إنساني لأنه من ناحية يترجم عن طبع الإنسان خالصاً من تقليد الصناعة المشوّهة ، ولأنّه من ناحية أخرى ثمرة لقاح القرائح الإنسانية عامة (. . .) ومصري لأنه دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربي لأنّ لغته العربية » [٤٧] . أما أحمد ضيف فقد دعا إلى أدب مصري [٤٨] يمثّل الأوضاع الاجتماعية والفكرية ويصدر عن روح العصر ، وإن ظلّ حريصاً على أن لا تنطوي دعوته على قطيعة معرفية مع الأدب العربي القديم .

ويبدو أنّ مفهوم هيكل للأدب القومي يغاير المفهومين السابقين ، فإذا كانت دعوة جماعة الديوان إلى مصرية الأدب تعني على المستوى الإبداعي استلهام الحياة المصرية ، والابتعاد عن التقليد ، لتعكس من الناحية النقدية تصورها الرومانسي الذي يعطي للتجربة الفردية ولطبيعة الشخصية قيمة كبرى ، فإن دعوة هيكل التي ظلّت على الصعيد النقدي ترتكز على رؤية تين في حتمية التلازم بين الأدب والبيئة التي يصدر عنها ، تتحرك في إطار فكري يتخذ من التاريخ الفرعوني [٤٩] أساساً معرفياً ، وهويّة حضارية .

ولعله يحسن قبل إيضاح هذه المسألة وأبعادها الأيديولوجية أن نوضّح أن مفهوم هيكل للأدب يرتبط بالرسالية أكثر من ارتباطه باللحظة الجمالية فهو يعرّف الأدب بأنه « فن جميل ،

غايته تبليغ الناس رسالة ما في الحياة والوجود من حقّ وجميل بوساطة الكلام . والأديب هو الذي يؤدي هذه الرسالة » [٥٠] من الناحية المعرفية يبيّن هيكل أنّ العلم والفلسفة هما وسيلتان أساسيتان للكشف عن مواطن الحق والجمال في الحياة . أمّا العلم فمستغن بذاته عما سواه ، وأما الفلسفة فتعتمد العلم لتشكيل مذهبها ، في حين يظل الأدب فرعاً لهذين الأصلين ، فهو مرتبط بشجرة الفلسفة التابعة لشجرة العلم مما يوجب على الأديب أن « يتغذى ما استطاع من ورد الفلسفة ومن ورد العلم وهو كلما كان أكثر غذاء من هذين الوردين كان أقدر على أداء الرسالة وكان أديباً حقّاً [٥١] .

على الصعيد النظري لا يقوم هيكل بتحديد ماهية الرسالة التي يتوجب على الأديب أن ينقلها ، كما لا يقوم بتحديد شكلها ، لأن نقد تين الذي يشكّل مرجعية له ، لا يفرّق بين الأبعاد التاريخية أو الاجتماعية من جهة وبين الأبعاد الفنيّة من جهة أخرى . لذا ترى هيكل يهتم بشروط الرسالة ، التي يرى أنّها ينبغي أن تكون متناغمة مع روح العصر ، قادرة على تمثيل جوانب الشخصية القومية .

أما على الصعيد الإبداعي فيحاول هيكل تحديد مضمون الرسالة التي ينبغي أن يحملها الأدب ، وبخاصة عندما يوصف بأنه « أدب قومي » . وفي سعيه لهذا التحديد يتحرك هيكل ضمن لحظتين تاريخيتين متغايرتين . أمّا اللحظة التاريخية الأولى فتتمثل في دعوته إلى بناء الأدب المصري المعاصر الذي يستلهم الحياة الفرعونية ويمجّدها [٥٢] ، ويكشف عن مناحي العظمة والقوة فيها . لهذا بدأ هيكل يتحدث في مقالات كثيرة عن طبيعة تلك الحياة ، حديثاً لا يتسم بالحياد التاريخي ، بل يصدر عن رغبة عميقة في إقناع القارئ المعاصر بمسألتين هما : بيان وجه العظمة والتميّز في الحياة الفرعونية ، وقد جاء ذلك من خلال الوقوف على أبرز شخصيات تلك الحقبة ، والحديث الوجداني عنها ، وتحليل أبعادها ودلالاتها الدينية والأسطورية . والتأكيد على أنّ تغيّر الدين في مصر من الوثنية إلى المسيحية إلى الإسلام وتغيّر اللغة من الهيروغليفية إلى العربية ، لم يقطع الصلات بين مصر الحديثة ومصر القديمة :

« بين مصر الحديثة ومصر القديمة ، اتصال نفسي وثيق ينساه كثيرون ، فيحسبون أن ما طرأ على مصر منذ عصور الفراعنة من تطورات في نظم الحكم ، وفي العقائد الدينية ، وفي اللغة ، وفي غير ذلك من مقومات حياة الأمم قد فصل بين هذه الأمة الحاضرة وبين الأمة المصرية القديمة فصلاً حاسماً جعلنا إلى العرب أو الرومان أقرب منّا إلى أولئك الذين عمّروا وادي النيل في ألوف السنوات التي سبقت المسيحية» [٥٣] .

أما اللحظة الأخرى فهي لحظة تنبثق من مصر المعاصرة . صحيح أنّ هيكل لا يرى أن ثمة انفصالاً بين اللحظتين فيما يخص مصر ، ولكنه يوضح أنّ الأدب القومي ، لا يتبلور إلا عندما يستطيع التعبير عن روح مصر وخصوصيتها ، مثلما استطاعت الآداب الأوروبية أن تصوّر ما تتحلّى به أوروبا من طبيعة جميلة .

ويبدو أنّ ارتباط مفهوم الأدب القومي عند هيكل بأبعاد أيديولوجية ، جعله وهو يناقش جوانب هذا المفهوم ، يتخلّى عن أسلوبه القائم على المحاجّة العقلية ، ليعبّر عن فكرته بقدر كبير من الذاتية المرتكزة على الوهج العاطفي ، فيتقمّص شخصية الفلاح المصري ، التي اتخذها منذ **زينب** قناعاً ، ليصف النيل على نحو يذكر بطريقته في وصف الطبيعة في **زينب** يقول :

« نعم ! تحرك الفلاح في نفسي ، فصرت لا أبصر إلاّ بعينه ولا أسمع إلا بأذنه ، ولا أشعر إلاّ بشعوره ، فكنت خلال هذه الساعات الثلاثة مأخوذاً بمناظر الوطن المحبوب وجمالها الساحر ، أكثر مما يأخذني أي مظهر من مظاهر الجمال . وكان تقديسي على أشده لمشهد مياه النيل في فيضانه (. . .) يالها ذات جمال لا يعدله جمال ، وروعة تسجد أمام جلالها كل روعة ! (. . .) أين أنت يا أنهار أوروبا وأنهار العالم كلّه من نيلنا السعيد المبارك الغدوات ، الميمون الروحات ! ومع ذلك يقدّس سكان روما التبر ، وسكان باريس السين ، وسكان برلين الأسبري وسكان لندرة التيمس ! ما أكبر ما لأجدادنا من عذر عن عبادتهم إياك واعتبارهم جنّة النعيم منابعك الإلهية » (٥٤) ولعلّ هذه النبرة العاطفية لا تستغرب إذا عرفنا أن فكرة الأدب القومي عند هيكل قد تخلّقت في إطار وجداني ؛ فقد تعرّف هيكل كما يروي في رسالة بعث بها إلى أخيه بتاريخ ٨/ ٦/ ١٩١٠ على فتاة كندية في السابعة عشرة من عمرها تدعى بياتركس . وكانت تحدثه عن مصر وتطلب منه أن يضع تاريخها في قالب روائي . ويبدو أن إعجاب هيكل بالفكرة كان يتوازى مع إعجابه بالفتاة . لهذا كتب يقول « نعم يا بياتركس . . . سأكتب تاريخ مصر مهما كلفني وليكون ذكرى لأسبوعين سعيدين في أيام الحياة» (٥٥) .

غير أن هيكل الناقد الموضوعي ظل يرى أنّ الارتباط العاطفي الحميم يشكّل نقطة الانطلاق في صناعة الأدب القومي ، ولكنّه غير كاف لبلورة ملامح هذا الأدب الذي يتغيا تجسيد شخصية الأمّة وروحها . ولكي يتمكن من صناعة الأدب القومي فإن عليه أولاً أن يرتبط بثقافة العصر وهي الثقافة الأوروبية ، وأن يصدر أدبه عن تجربة وإذا كان هيكل يقف من الأدب العربي القديم ، ومن التراث العربي عموماً في ضوء مفهوم الأدب القومي بأبعاده الأيديولوجية من حيث هو نقيض لارتباطات مصر بالعالم العربي - موقفاً نقدياً متفحصاً ، فإنّ نبرة الإعجاب الخالص

بالآداب الأوروبية تسيطر عليه في هذه المرحلة . فالأدب العربي القديم لا يكفي لصناعة « أديب الرسالة الكبرى» ولكنّه يصنع « أدب الألفاظ » [٥٦] الذي يكون جماله كجمال الدمية التي تخلو من الحياة. لهذا يرى هيكل أن التجديد في الأدب له طريق واضح ، وهو الثورة على القديم ، والتخلّص من سطوته ، كما فعل الأدباء الأوروبيون . لهذا يدعو وهو يحدّد ملامح الثورة في الأدب إلى ضرورة أن يمتلك الأديب شخصية مستقلة ، وأن تكون له تجربته الذاتية ، وأن لا يستند في إبداعه على الذاكرة . وهذا الموقف جعله رغم إعجابه العميق بالحضارة الأوروبية ، يرفض أن يقع الأديب في أسرها وأن تكون تجربته امتداداً لها ، فإنّ تقليد الآداب لا يصنع أدباً قومياً ، بقدر ما يسهم في تشويه الشخصية القومية .

لقد ظل هيكل أميناً مع مرجعياته النقدية ، فعلاقة العلية تؤكد فكرة تغيّر الأدب بتغيّر الأديب ، إضافة إلى انبثاق قانون التغيّر من قانون التطور على مستوى الحياة الاجتماعية . لهذا ظلّ يلتمس العذر للأدباء المصريين الذين صبّوا أدبهم بعد ثورة ١٩١٩ في قوالب غربية ، لأنّ هذا الأمر مرتبط بالتحولات السياسية والاجتماعية في مصر ، فإذا كانت الأمة قد ثارت من أجل الأستقلال وبناء دولة قومية على أسس غربية ، فمن الطبيعي ، أو المنطقي أن يقوم الأدباء بجعل «مظاهر الفنّ والأدب مصبوبة عندهم في قوالب غربية ، لتكون آية للناس جميعاً على تقدّمهم ، وعلى أنّهم يسابقون الغرب إلى مختلف ميادين الحضارة » [٥٧] .

من هنا يرى هيكل أنّ الخضوع لسطوة التراث الأدبي العربي ، ويمثّل على ذلك بالتجربة الشعرية ، يتناقض مع طبيعة شخصية الأديب المستقلة ، من جهة ، ويفضي إلى تدمير استقلاليتها من جهة أخرى .

« مضت علينا أجيال ونحن مقيّدون بالشعر العربي القديم معاني وأوزاناً ، إنما آن لنا أن تكون لنا شخصية مستقلة ، وأن يعلن شعراؤنا حرّية الشعور والشعر ، وأن يقولوا بوحي أنفسهم وإلهام حياتهم لا بوحي الأقدمين وإلهامهم . . . فيكون شعرهم شعر النفس الفيّاضة ، لا شعر الظروف التي لا شعر فيها » [٥٨] .

أما ارتباط الأديب بعصره وقدرته على تمثيله ، فهو يتطلب أن لا يكون الأديب من الذين يستمدون « شعورهم من الكتب لا من الحياة » ، فيتحدثون عن « جمال صحراء العرب » أو عن جمال أوروبا وروعة تاريخها » [٥٩] وينسون جمال مصر الماثل أمام أعينهم ، ويتجسّد هذا الارتباط أكثر ما يتجسّد في أداة التعبير اللغوي .

اهتم هيكل باللغة ، من منظور علاقتها بالأدب منذ عام ١٩١٢ وهو يناقش **تاريخ آداب العرب** للرافعي . فقد أخذ على الرافعي اختياره « لألفاظ لا جمال فيها » [٦٠] مثلما أخذ عليه

ابتعاده عن الدقّة ، وعلّل ما في لغة الرافعي من خشونة وغرابة بأنّ الرافعي « يجاهد لنسلخ عن طبيعة مصر ليبقى بذلك عربيّاً فصيحاً » [٦١] . وإذا كان حديث هيكل يتناول في هذا المقام شخصية مؤرخ الأدب ، وينطوي حديثه على لون من التعريض بأصول الرافعي غير المصرية ، فستظل نظرة هيكل تتوزّع بين الدقة والجمال فيما يخص العلاقة بين اللغة والأدب .

تنبني رؤية هيكل ، وهي تسعى لتحديد العلاقة بين الأديب واللغة ، على أمرين متّصلين بطبيعة رؤيته للإبداع وللنقد الأدبي : أما الأمر الأوّل فينبع من إيمان هيكل بحتمية التطور الإجتماعي والحضاري ، هذا التطور الذي يقود بالضرورة إلى تغيّرات أدبية عميقة لا تشمل معاني الأدب ، أو مضمونه ، بل لغته كذلك ، وأما الأمر الثاني فهو إيمان هيكل بأنّ الأدب ابن للعلم وللفلسفة أو هو على حدّ تعبيره « رحيق الحياة العقلية والفنّية » [٦٢] . وهذه المزاوجة ستتبدى في تحديد هيكل لوظيفة اللغة التي ينبغي أن تجمع بين وصف الواقع وهي وظيفة اللغة العلمية التي تتصف بالوضوح والدقة وبين إثارة الإنفعال وهي وظيفة اللغة الأدبية . وقد جسّد هيكل رؤيته بقوله : « واللغة في الأدب ليست إلاّ الكساء الظاهر لهذا الرحيق الذي يعبّر الأدب عنه » [٦٣] . وهو في هذا التحديد يذكّر بثنائية اللفظ والمعنى ، رغم اتكائه في بلورة المسألة على لغة المجاز . فالكساء هو اللفظ أمّا الرحيق فهو المعنى .

يتحدث هيكل عن تطوّر الكساء في العصور المختلفة ، ويرى أنه في عصرنا الحاضر صار يميل إلى « البساطة والصحة » [٦٤] ، ويبيّن أنّ هذا التطوّر مظهر من مظاهر تغيّر الحياة العقلية والفنيّة ، وأنّ هذا التطور يتجلّى في تطور الألفاظ في اللغة من حيث البقاء أو الفناء في ضوء التطور المشار إليه ، غير أنّ هذا التغيّر الطبيعي لا يتجلّى في الأدب على نحو آلي ، فلا بُدّ للأديب أن « يُجاهد جهاداً عنيفاً شاقاً » [٦٥] لتكون لغته منسجمة مع روح العصر الذي يعيش فيه .

يتكرر مصطلح الجهاد في هذا السياق كثيراً وسنكتفي بالإشارة هنا إلى حديث هيكل عن فلوبير « وجهاده في هذا السبيل ، فهم يرون أنّه كان يحتار أحياناً في اختيار اللفظ الذي يعبّر أحسن التعبير عن فكرة من أفكاره فيظلّ يقلّب وينقّب ويفكّر أسبوعاً كاملاً ليجد اللفظ الدقيق الصالح وأنّه حين كان يكتب قصته الخالدة مدام بوفاري ويقص انتحار بطلتها بالزرنيخ كان يُحسّ طعم الزرنيخ في فمه ، فيجد لذلك العبارات الدقيقة التي تصف هذا المعنى وتصوّره تصويراً مضبوطاً » [٦٦] . يعني مصطلح الجهاد في هذا السياق المعاناة التي تصاحب عملية الإبداع . ولا شك أنّ مفهوم هيكل للمعاناة ، يؤكد أهمية التجربة ودورها في جعل العملية الإبداعية قادرة على التأثير في المتلقي . وإن كان هيكل لا يغفل دور الصناعة ، لأن الفن عند هيكل ليس إلهاماً أو عاطفة يفيض بها القلب « فحسب بل مزاوجة بين التلقائية والصنعة ، لهذا تراه يتحدث عن

وجوب صقل اللغة لتتمزج بالأدب ولتكون له لباساً شفّافاً موسيقياً ، رشيقاً » [٦٧] .

ولكنّ الإشكالية اللغوية عند هيكل يمكن أن تتجلّى في بعدين يؤكدان رؤية هيكل في كون «الأداب مرآة العصر » . أمّا البعد الأول فيتمثل في علاقة الأديب بالتراث ، وأما البعد الثاني فيتجلّى في العلاقة بين الأديب وعصره . يتّخذ هيكل من الشاعر نموذجاً في البعد الأول ، ويكون تركيزه في هذا البعد على التطور الذي جعل « الألفاظ القديمة غير صالحة » [٦٨] لأداء المعاني المعاصرة ، في حين يتخذ من الكاتب القصصي أو المسرحي نموذجاً في البعد الثاني .

وتتمثل الإشكالية في الفرق بين لغة الأدب ولغة الكلام » [٦٩] . وإذا كان هيكل يرى أن معرفة الشاعر المعاصر بالألفاظ القديمة توسّع من أفاق إبداعه ، وتفيده في « تحديد المعاني » ، فإنّه يربط إشكالية الكاتب القصصي والمسرحي ، بالكثير من الأبعاد الإجتماعية والسياسية والتربوية التي تجعل انحيازه لمستوي لغوي معيّن سبباً ونتيجة في الوقت نفسه . ومن الملاحظ أنّه يقرّر في مقدّمة **ثورة الأدب** أنه نتيجة تعدد اللهجات في البلاد العربية « لا بدّ من أن تكون اللغة العربية الصحيحة لغة الكتابة ولغة الاتصال بالجمهور » [٧٠] ثم يقرّر في مقالة له عن « التأليف المسرحي» أنّه في مسألة لغة المسرح يميل « إلى الحرية المطلقة » فلا يرى « أي ضير في أن يكتب مؤلف مسرحي باللغة الفصحى وآخر باللغة الدارجة » .

ويمكن تعليل هذا الاختلاف في الحكم من خلال ما طرأ على رؤية هيكل من تحولات فكرية ، كما يمكن تعليله بإيضاح الفرق بين هيكل الناقد الذي تتشكل استجابته تجاه العمل الأدبي على نحو عام يتّخذ صفة القانون ، وبين هيكل الكاتب الذي تجسّد أعماله طبيعة العلاقة الإشكالية بين لغة الأدب ولغة الكلام .

4

تميّزت الأعوام الواقعة بين ١٩٣٢ - ١٩٣٧ بانعطافات حاسمة في رؤية هيكل ، وفي رؤية المعاصرين له من أمثال طه حسين والحكيم والعقاد . فمنذ أن نشر طه حسين عام ١٩٣٣ الجزء الأول من على هامش السيرة بدأ أولئك الأدباء والنقاد الكتابة في ميدان الإسلاميات ، فنشر هيكل عام ١٩٣٥ **حياة محمد** وكتب الحكيم مسرحيته **محمد** (١٩٣٦) ، وبدأ العقاد منذ عام ١٩٣٧ الكتابة عن العبقريات الإسلامية .

لقد تنبّه محمد مندور في مقالة من مقالاته في **الميزان الجديد** وهي مقالات نشرت بين ١٩٣٩-١٩٤٤ إلى هذا التحول وجسّده من خلال التساؤل التالي : « ما بال معظم كتّابنا قد انتهوا بالكتابة عن محمد ؟ أهو إيمان من يشعر باقتراب اليوم الآخر . ذلك ما نرجوه » [٧١] .

يبيّن مندور بعد ذلك أنّ هذا التحول أو « الاخفاق » كما يسميّه يجسّد في الكثير من جوانبه «ضغط الهيئة الاجتماعية» و « إغراء الشهرة » . وإذا كان الحديث عن مدى الصدق في تلك التحولات لا يعني الباحث فإن من الضروري أن يشار في هذا الصدد إلى بعدين :

أولاً : إنّ كتابة طه حسين وهيكل والحكيم والعقاد في ميدان الإسلاميات ظلّت تتوافق مع المعطيات الفكرية والمنهجية الغربية التي شكّلتهم . فقد وضّح هيكل في **حياة محمد** أنه سيدرس حياة الرسول الكريم « دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة ، خالصة لوجه الحق ، ولوجه الحق وحده » (٧٢) وكان **على هامش السيرة** متّفقاً مع مشروع طه حسين الحضاري في إحياء التراث القديم ، لأنّ هذا الاحياء شرط أساسي من شروط النهضة المعاصرة ، متفقاً بذلك مع الأوروبيين المحدثين في استثمارهم لتراثهم (٧٣) ، أما **عبقريات** العقاد فقد كانت تجسيداً لرؤيته المثالية على الصعيد الفلسفي ، التي تستمد أبرز مقوماتها من الإيمان بدور الفرد المتميّز في التاريخ .

ثانياً : إن هذا التحول لم يغيّر ، فيما يخصّ هيكل الناقد ، رؤاه النقدية التي أشرنا وإن أصاب مشروعه للأدب القومي بعض التعديل ليرتبط بأبعاد شرقية أو إسلامية .

ولتبيان طبيعة هذا التحوّل وعمقه من الناحية الفكرية ، يمكن المقارنة بين مقالة هيكل ، التي كنّا قد أشرنا إليها ، التي تناقش **تاريخ آدب اللغة العربية** لجورجي زيدان ، وقد نشرها عام ١٩١٢م ، وبين مقالة تنتمي إلى عام ١٩٣٣ في الأغلب وعنوانها **خاتمة في الأدب والحضارة** (٧٤) وقد جاءت في نهاية كتابه **ثورة الأدب** .

ففي مقالته الأولى يأخذ هيكل على زيدان « سكوته المطلق عن القرآن والحديث ثم يخلص إلى فكرة تجسّد رؤيته الوضعية آنذاك حيث ينظر هيكل للقرآن الكريم نظرة تاريخية ، تربطه بمعطيات الواقع وأبعاده :

« القرآن كتاب كريم ذو شأن عظيم ، لا في أمر الدين الإسلامي فقط ، بل كذلك في أمر آداب الأمة العربية . . . لذلك كنا نود أن يوقفنا كتاب **تاريخ آداب اللغة العربية** على الأصول الأدبية التي استمدّ منها هذا الكتاب وجوده » (٧٥) .

أما في المقالة الثانية التي أشرنا إليها ، فقد تحدّث هيكل فيها عن تحوّل فكري يتوافق في أبعاده مع مقدمة كتابه **حياة محمد** .

تتحدث المقالة عن شيء من سيرة هيكل الفكرية ، وتقف عند مطالعاته في الأدب العربي القديم ، ثم عن مطالعاته باللغتين الإنجليزية والفرنسية ، مثلما تتحدث عن تأثير البيئة الغربية في تفكيره . ليخلص إلى أنه كان مدفوعاً تحت وطأة تلك المطالعات إلى « الإعجاب بالحضارة